سوسيولوجيا السياحة

أبو بكر أحمد باقادر(*)

يظهر أن السفر يولّد مشاعر وتمثّلات متناقضة، وكما يوضح بعض الدارسين الغربيّين أن السفر يولّد ـ في حالتهم الثقافية ـ الكراهية والتمييز وضيق الأفق، بدلاً من إحداث العكس، كما هو معلن عادة(1). والسياحة أصبحت تهمة أو شبهة يحاول العديد أن ينكرها عن نفسه، فصورة السائح، عند المفكرين هي السطحي والعابر ومن ليس له تجربة معتمدة صادقة(2). فالسياحة عندهم تشير إلى متع من أهمها الشمس والجنس والبحر والرمل (sun, sex, sea and sand) ويضيف آخرون لها الفرجة والتوفير والعبودية (sights, savigns and servility)(3). وكما سنوضح في ثنايا هذا البحث أنه على الرغم من شعارات السياحة الرسمية المؤكدة على التفاهم والمحبة بين الشعوب، ما أنتجته السياحة الدولية كان مغايراً كلّياً لهذه الشعارات. ونحن سنفرّق هنا بين السياحة الداخلية التي تستهدف الأهالي وحركتهم داخل ثقافتهم والسياحة الدولية التي تركز على منطلقات سنناقشها موضحين ما ينتج عنها من أضرار أو فوائد على أقطار العالم الثالث(4) على وجه الخصوص.

وطريقتنا في معالجة الموضوع ستعتمد على ما توصّل إليه الدارسون في العلوم الاجتماعية وبالذات في علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا في دراسة السياحة. ويعدّ علم

(*) استاذ في جامعة الملك عبد العزيز ـ جدّة ـ المملكة العربية السعودية.

(1) Malcolm Crick: «Representations of International Tourism in the Social Sciences: Sun, Sex, Sights, Savings, Servilility», **Annual Review of Anthropology**, 18, 1989, 307.

(2) انظر ما أورده ليفي ستراوس في مقدمة كتابه **المدارات الحزينة**، Levi-Strauss: **Tristes Tropiques**, **Harmonds Worth**, Penguin, 1976.

(3) لاحظ ان كل الكلمات تبدأ بحرف «س» وكلها تشير إلى دلالات حسّية.

(4) استخدمنا مصطلح «عالم ثالث»، ونقصد بذلك بلدان آسيا وإفريقيا واميركا اللاتينية، اي الدول التابعة في الأنظمة العالمية.

اجتماع السياحة واحداً من مجالات علم الاجتماع الحديثة[5]، وهو يهتمّ بالدراسة العلمية وواقع وأدوار وعلاقات المؤسسات السياحية وتأثيرها على السواح وعلى المجتمعات المستقبلة لهم. كذلك سيكون من أهداف مراجعتنا هذه التركيز على بعض الشعارات التي سادت عن السياحة في عقدي الستينات والسبعينات والتي تؤكّد على أهمية قطاع السياحة كوسيلة من أهمّ وسائل التنمية الاقتصادية ووسائل التفاهم بين الشعوب.

وتعدّ الدراسات الاجتماعية «العلمية» لقطاع السياحة نوعاً ما حديثة، فأول دراسة تمت عام 1899، لكن وكما يؤكد كوهين[6] وبالرغم من تعدد الدراسات الآن والمدارس النظرية التي ينطلق منها الباحثون، تعدّ من حقول علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الهامشيّة بل وتعاني من أزمة نظرية وبحثية[7].

وعلى أي حال سننظر إلى دراسة السياحة هنا، لا باعتبارها موضوعاً يتناول موضوعاً مثيراً غرائبيّاً، وإنما يتناول ظاهرة اجتماعية تمسّ ملايين البشر ينفقون بلايين الدولارات في نشاطهم هذا الذي يستحوذ على اهتمامات المستثمرين الذين يدفعون بلايين الدولارات في منشآت ومرافق من أجل السيّاح والسياحة.

وسنبدأ بتعريف السائح، فكما اقترح الاتحاد الدولي لمنظمات السفر وصادقت عليه منظمة السياحة العالمية فإن السيّاح: «زوّار مؤقتون يمضون على الأقل مدة أربع وعشرين ساعة في البلد الذي يزورونه، والغرض من زيارتهم هو:

1 ـ الترويح (الترفيه أو قضاء الإجازة أو الدراسة أو الرياضة أو لأمور دينية).

2 ـ التجارة[8].

ويظهر أن التعريف مفيد فقط للأغراض الإحصائية أو القانونية ولأغراض الخدمات والمرافق التي تحتاجها صناعة السياحة، لكنه ربما كان غير مفيد للقيام بالدراسات الاجتماعية، كما حفّز علماء العلوم الاجتماعية القيام بمحاولات لتعاريف أفضل. وينطلق هؤلاء العلماء من تصورات مختلفة لمفهوم السياحة، ويمكننا إجمالاً أن نعرض هذه التصورات في ما يلي:

1 ـ السياحة باعتبارها ضيافة تجارية

في مثل هذا التصوّر يكون التركيز على جانب دور السائح بوصفه زائراً. والعلماء

---

(5) Eric Cohen: «Sociology of Tourism», **Annual Review of Sociology,** 1989, pp. 373-342.

(6) المرجع السابق، ص 373.

(7) قولنا بهذه المعاناة لا يعني على الإطلاق عدم وجود أعلام ومدارس بارزة في الحقل، كما سيتضح مما سنعرض.

(8) N. Leiper: «The Framework of tourims: Towards a definition of tourism, tourist and the tourist industry», **Annual Tourism Research,** 6 (4), 1979, pp. 390-407.

المتحمّسون لهذا الاتجاه النظري يرون السياحة عملية تحويل تجارية للعلاقة التقليدية للضيافة، يلعب فيها «الغرباء» دوراً ومكانة مؤقتة في المجتمع الذي يزورونه، وبطبيعة الحال أنصار هذا التصوّر يدرسون تطوّر وديناميات العلاقات بين السياح والأهالي المحليين وتحليل الصراعات في الأدوار المتبادلة، وكذلك نوعية المؤسسات التي تتعامل مع السياح ونظرتها لهم(9).

2 ـ السياحة بوصفها وسيلة لشيوع وديمقراطية السفر

يركّز أنصار هذا الاتجاه على جانب المسافر في دور السائح، ليوضحوا الخصائص العمريّة والاجتماعية الاقتصادية للسيّاح، وكيف أن خصائصهم تغيّرت عمّا كان عليه الحال في العصور السابقة، إذ لم تكن السياحة متاحة سوى للأرستقراطية، واصبحت في العصر الحديث متاحة لكافة الطبقات، وخاصة الوسطى، بسبب الأسعار التنافسية التي تقدمها وكالات السفر والسياحة، مما ولّد نماذج جديدة ليس فقط للسفر وإنما أيضاً جعل السياحة ظاهرة استهلاكية تتوجه إلى إبراز الفروقات الطبقية بمستويات المعيشة وقدراتها المالية وأساليب ترفيهها وقضائها أوقات فراغها(10).

3 ـ السياحة بوصفها نشاطاً ترفيهياً حديثاً

في هذا المنظور يُنظر إلى السياحة باعتبارها نوعاً من أنواع الترفيه(11)، وأن السائح أثناء قيامه بالسفر إنما يكون في حالة ترفيه(12)، والمتحمّسون لهذا المنظور يؤكّدون على أن من أبرز خصائص الترفيه الحرية، الحرية من كل الالتزامات وخاصة الروتين اليومي. ويميل أنصار هذا المنظور إلى تبرير مركزية المتع والتحلّل من القيم الاجتماعية والثقافية في حياة السائح، بل وإقباله عليها وضرورة تسهيلها له، وهكذا ترتبط حياة الليل والحفلات الغنائية والراقصة والمتع الحسيّة الأخرى بمفهوم السياحة(13). ويعدّ هذا المنظور من أنشط الاتجاهات في دراسة السياحة الحديثة.

4 ـ السياحة باعتبارها تعبيراً عن أمور ثقافية أساسية

يؤكّد أصحاب هذا الاتجاه على معانٍ عميقة للسياحة، إذ يربطون بين السياحة والانفتاح الثقافي بين الشعوب ومن ثم تعارفها، وهم يرون أن السائح تدفعه رغبة في

(9) A.H. Taylor: «Tourism-The business of organized hospitality», **Commer. Rev.**, 35 (1932): 188-90.

(10) D.G. Pearce: «Demographic variations in international tourism», **Rev. Tourisme**, 33 (1), 1978, pp. 4-9.

(11) M.S. Schudson: «Onourism and modern culture», **Am. J. Sociol.**, 84 (5), 1979, pp. 249-58.

(12) J. Domazdier: **Towards a Society of Leisure**, New York: Free Press, 1967.

(13) J.W. Vogt: Wandering Youth and Travel Behavior, **Ann. Tourism Res.**, 4 (1), 1976, pp. 25-41.

معرفة وربما أحياناً عيش حياة الشعوب والأقوام من ثقافات أخرى، بشكل لم يكن ليكون ممكناً دون السياحة. ومن ثم يرى أنصار هذا المنظور أن عملية التبادل الثقافي تعدّ أحد أهم دوافع السيّاح للسفر، ومن ثمّ فإن من أهم العناصر الجاذبة لاهتمام السائح المتاحف والمعارض وإمكانية تجربة حياة ثقافية مختلفة، ولا بأس من تقديمها بوصفها ثقافة غرائبية فولكلورية، والسياحة بهذا المنظور تعني تجربة ذات خصوصية ثقافية للسائح(14).

5 ـ السياحة بوصفها عملية تبادل ثقافي

المتحمّسون لهذا المنظور يركّزون على الآثار التي يتركها السيّاح على مضيفيهم وهم يسعون إلى دمج دراسة السياحة في إطار أوسع لنظرية المثاقفة(15). وهذا الاتجاه لم يحظَ بشعبية بين الدارسين، بالرغم من أن السياح في العديد من الأماكن حتى النائية منها، يظهرون كما لو أنهم وكلاء أو ممثّلون مهمّون لصيغة هزيلة من عملية التغريب وخصوصاً في عادات الأكل والملبس وأساليب الحديث والحياة اليومية(16).

6 ـ السياحة باعتبارها نوعاً من العلاقات العرقية أو الإثنية

يهتم انصار هذا الاتجاه بإبراز أهمية تحليل علاقة السائح بالمضيف في إطار عرقي أو إثني في إطارها الأوسع(17). ويتساءل انصار هذا الاتجاه عمّا إذا كانت السياحة قادرة على تعديل أو تحسين هذه العلاقة في الجوّ الاسترخائي الذي يعيشه السائح، وعلى مدى قدرتها على تغيير الصورة النمطية، السيئة عادة، بين الأعراق. ويهتمّ أصحاب هذا الاتجاه بدراسة تذوق الأعمال الفنية العرقية والإثنية ومكامن الفن والجمال عند الآخرين، في ظل ظروف تسمح بالتقدير والاستحسان من طرف السائح، القادم غالباً من دول صناعية متقدمة(18).

7 ـ السياحة بوصفها نوعاً من أنواع الاستعمار الجديد

سنعالج هذا المنظور لاحقاً بشكل أوسع، لكن إجمالاً يميل أصحاب هذا الاتجاه إلى

(14) R. Noronha: **Social and cultural dimensions of tourism: A review of the Literature in English,** Washington D.C. World Bank (Draft), 1977.

(15) Th. Nunez: «Tourism, tradition and acculturation: Weekendismo in a Mexican village», **Ethnology** 2 (3), 1963, pp. 347-52.

(16) D. Nash: «Tourism as an Anthropological subject», **Current Anthropology,** 22 (5), 1981, pp. 461-81.

(17) J. Pearce: «Host community acceptance of foreign tourists: Strategic considerations», **Ann Tourism Res.** 7 (2), 1980, pp. 224-33.

(18) J. Pearce: **The Social psychology of Tourist Behavior,** New York: Pergmon, 1982.

نقد السياحة الدولية في شكلها الحالي مؤكّدين على أن تدفق السياح من الاقطار الرأسمالية الغنية إلى أقطار العالم الثالث الفقيرة إنما هو تكريس لربط اقتصاديات هذه الدول وفرض تبعيتها وإتكاليتها على الدول الغنية مما يولّد تخلّفاً بنائياً في اقتصادها يشبه الاقتصاد الثنائي الذي ولّده الاستعمار في هذه الأقطار. ويعزو أصحاب هذا المنظور هذه الحالة إلى الصورة التي قُدّمت بها السياحة كصناعة متطورة ذات حلول اقتصادية سحرية في التنمية في الستينات والسبعينات، وكيف أن هذه الوعود السرابية أدت إلى مزيد من التخلّف والتبعية[19].

طبعاً، تتداخل هذه الاتجاهات النظرية في دراسة السياحة ببعضها بالرغم من محاولة بعض أصحابها أن تكون مستقلة، إضافة إلى أنها جميعاً تعتمد على تصورات ومفاهيم أساسية عن السائح وعلاقته بالأهالي المضيفين له اثناء إقامته بينهم، إضافة إلى دراسة بنية ووظيفة النظام السياحي والنتائج الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المترتبة على السياحة. وسنسعى هنا، وبشكل مختصر، إلى استعراض بعض أهم نتائج الدراسة التي اجريت ميدانياً عن هذه الموضوعات.

صورة السائح

تميل غالبية الدراسات التي تتناول موضوع السائح إلى أن تكون دراسات إمبريقية (في العادة في شكل مسح اجتماعي) تدرس الخصائص الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية للسياح إضافة إلى دراسة تكرار وغرض ومدّة ونوعية السفر وطبيعته، ونوعية النشاطات التي ينخرط فيها السياح[20]. وبالرغم من أن مثل هذه المسوح الاجتماعية محدودة الفائدة وتتغيّر من وقت لآخر ومن منطقة لأخرى، لكنها مع ذلك تقدّم أفكاراً مهمة عن الاتجاهات الرئيسة في السياحة الدولية الحديثة[21].

ونظراً لأن السياحة الدولية أصبحت واسعة الانتشار بعد الحرب العالمية الثانية وغدت في متناول كافة الطبقات الاجتماعية، وعلى وجه الخصوص في المجتمعات الغربية الصناعية، بسبب ارتفاع مستوى المعيشة وقصر فترة العمل في السنة، مما مكّن من فرص إجازات طويلة مع كامل الراتب[22]. ولقد ارتفعت أرقام السيّاح بشكل ملحوظ، فيوضح يونج[23] أن أعداد السياح عام 1950 كانت حوالى 25,3 مليون سائح، وأصبحت عام 1960، 75,3 مليون سائح، وعام 1981، 291 مليون سائح. وقدّرت السياحة المحلية

(19) L. Perez, «Aspects of underdevolopment: Tourism in the West Indies», **Soci & soc.** 37 (4), 1977, pp 473-80.

(20) N. Mitford: «The tourist» **Encounter**, 13 (4), 1959, pp. 3-7.

(21) M.S. Schudson: «On tourism and modern culture», **Am. J. Sociol.** 84, 1979, pp. 1249-58.

(22) J. Domazdier: Op. Cit., pp. 129-30.

(23) G. Young: **Tourism-Blessing or Blight?** Harmondsworth, Penguin, 1973, p. 52.

عام 1980 بحوالى 2,3 بليون سائح، وكما هو واضح فإن الأرقام في تزايد مستمر سنوياً، مما يجعلنا نردد ما يُذكر عادة: السياحة صناعة متطوّرة[24].

وتُظهر المسوح الاجتماعية عموماً، أن الذكور يسافرون أكثر من الإناث، ويسافر كبار السن أقل من الشباب ومتوسطي العمر، وأعداد الشباب في تزايد. ويسافر سكّان المدن أكثر من سكان الريف للسياحة، نظراً لأن حياتهم تميل إلى العمل في قطاعات مهنية تمنحهم إجازات سنوية بشكل أكثر تنظيماً. وتأخذ نسبة أكبر من ذوي الدخل العالي رحلات إجازة سنوية، ويقوم الأثرياء بأكثر من رحلة في العام. وبالرغم من ديمقراطية السفر، إلا أن الفروق الطبيعية واضحة في هذه المسألة، خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار نوعية وجهة وتنظيم الرحلة وأسلوب السفر ودوافعه[25].

واهتم علماء الاجتماع وعلماء علم النفس بدراسة دوافع السفر ومدى تأثير الصدمة الثقافية أو البيئية التي قد تواجه السائح عند وصوله وجهته[26]. وتؤكّد الدراسات أن دوافع السفر أصبحت متزايدة وترتبط باحتياجات الفرد النفسية وخططه الحياتية ورغبته في القيام بتجربة أصيلة من ناحية، والخروج على مألوفه في حياته الاجتماعية التي يعيشها؛ وأصبحت محاولة الوصول إلى الأصالة في هذه التجربة، عند البعض، تأخذ شكل الاهتمام بالمقدّس في المجتمع البدائي، بل هي، في نظر البعض، تشبه التطلّع الديني للوصول إلى حقيقة قصوى وربما عاد ذلك إلى ضحالة الحياة الحديثة وعدم أصالتها واغتراب الإنسان الحديث، ومن ثم الرغبة والتطلّع للتعرف على حياة ثقافية واجتماعية مختلفة[27]. على أن البعض يميل إلى أن هذه التجربة غير عميقة وإنما تكتفي بالمشاهدة السريعة، وتأكيد الفروق الواضحة بين المجتمع المضيف والمجتمع الأصلي للسائح في شكل ما يعرف بـ sight seeing (أي رؤية المناظر) والتي تميل إلى التركيز على الشوارع والميادين العامة الفسيحة، دون تمكّن السائح من التعرف أو التغلغل في حياة الأهالي في الأحياء الخلفية الفقيرة، مما يشكّل صورة غير حقيقية أو واقعية عن المجتمعات التي يزورونها[28].

ويصنَّف السياح على أساس أنواع السياحة الجماعية المنظّمة والسياحة الفردية، وكذلك يصنَّفون على أساس بعض أهم ملامح شخصيتهم أثناء السياحة وأشهر تلك

---

(24) **Internation Union of Official Travel Organization (UOTO),** The United Nations Conference on International Travel and Tourism, Geneva, IUOTO, 1963.

(25) D, nash: «1763-1936», **Ann. Tourism Res.,** 6 (1), 1979, pp. 61-75.

E. Cohen: «Toward a sociology of international tourism», **Soc. Res.,** 391 (1), 1972, pp. 164-82.

(26) D. Curt and M. King: «Some correlates of culture shock among American tourists in Africa», **Int. J. Intercult. Relat.,** 3 (2), 1979, pp. 211-25.

(27) G.M.S. Dann: «Tourism motivation: An appraisal» **Ann. Tourism Res.,** 8 (2), 1981, pp. 187-219.

(28) Ph. F. Mckean: «Interaction between tourists and Balinese: An anthropological analysis of partial equivalence. Structures, **Majalah Ilmu-Ilmua Sozial Indonea,** 3, 1976, pp. 135-46.

التصنيفات: المغامر والمكتشف والجوّال وطالب الراحة والاسترخاء والمتسوّق وطالب المتع المحرمة[29]. ولقد درس بعض العلماء سلوك السائح بشكل تفصيلي، خصوصاً سلوكهم على شاطىء البحر أو في المُتَصَيَّف، وكيف أن العديد من السياح يتجاوزون أعراف وتقاليد السكان الأصليين، مما يولد انتهاكات ثقافية ويبرز اختلافات وفروقاً غالباً ما يكون لها أثرها السيِّىء على الأهالي[30]. وتوضح بعض الدراسات أن السياح، عندما يكونون عُزْباً أو دون أطفال، تكون تصرّفاتهم ومتطلباتهم السياحية مختلفة عما هو عليه الحال عندما يكونون مع أسرهم وأطفالهم، الذين يتطلبون نشاطات أسرية نوعاً ما[31]. ولقد سعى العلماء أيضاً إلى دراسة مدى رضى السياح عن سياحتهم وسلوكهم أثناء السفر[32].

علاقة السياح بالأهالي

تعالج البحوث موضوع هذه العلاقة انطلاقاً من أن العلاقة هي بين مضيفين وضيوف، وبالرغم من أن العلاقة بطبيعتها عابرة ومؤقتة وقصيرة، فإن التفاعلات التي تقوم بين السياح والأهالي تتميّز بأنها سلسلة من لقاءات بين زوار أو ضيوف متحركين هدفهم إسعاد وتسلية أنفسهم لأقصى حدّ، وهم يتوقعون أن يسعى مضيفهم للقيام بما يحقّق ذلك بأقل تكلفة ممكنة وبأقصى درجة من المهنية. وفي المقابل، على الأهالي وهم عبارة عن مضيفين ثابتين نسبياً، القيام بوظيفة تقديم العون والمساعدة التي من شأنها تحقيق رغبات هؤلاء الضيوف، مع إظهار الحفاوة بهم وإسعادهم والقيام على خدمتهم مع توقع الحصول على أكبر عائد من ذلك. ويغلب على الطرفين تقدير أن هذه اللقاءات، بالرغم مما يسعى الأهالي إليه من مظاهر الحفاوة والمهنية، خصوصاً من كان يعمل منهم مع السياح مباشرة ـ إلا أن هذه اللقاءات لأنها عابرة وغير متكرّرة وغير متماثلة، تجعل المشاركين فيها، وعلى وجه الخصوص السياح، يميلون نحو الحصول وبسرعة وبطريقة مباشرة على ما يرضيهم ويمتّعهم، على حساب التفكير في إقامة علاقة مستمرّة ترعى مصالح الأطراف جميعها وتحفظ لهم مكانتهم وإنسانيتهم. ويغلب على المشاركين، بسبب طبيعة هذه اللقاءات، أن لا يحسبوا آثار أفعالهم الحاضرة على

(29) E. Cohen: Op. Cit.
E. Hiller: «Escapism, penetration and response: Industrial tourism in the Caribbean», **Caribbean Stud.**, 16 (2), 1976, pp. 92-116.

(30) N.H. Evans: **Tourism and cross-cultural communication in V.L. Smith, Hosts and Guests,** Philadelphia, Univ. Pa. Press, 1977.

(31) فبدلاً من الإقبال على المتع الحسية والمحرّمة، الاهتمام بالمتع المحافظة أخلاقياً والتي تميل إلى أن لا تكون خطرة على الأطفال، وغير عالية المستوى بحيث تكون مملة لهم.

(32) A. Pizam, Y. Neumann and A. Reichel: «Dimensions of tourist satisfaction with a destination area», **Ann. Tourism Res.**, 5 (3), 1978, pp. 314-22.

مستقبل العلاقة، وإن كانت الدولة والمجتمعات العريقة في صناعة السياحة، تسعى إلى التأكيد على مستوى من المهنية في التعامل مع السائح لتضمن خلق ثقة متبادلة، غالباً ما يحرّكها اهتمامات نفعية لا اكثر[33].

ونتيجة لذلك، فإن مثل هذه العلاقات ـ بالرغم من متطلبات المهنية النفعية ـ تميل إلى الغشّ والابتزاز وعدم الثقة بسبب تطلّع طرف إلى متعة آنية سريعة من ناحية، وتطلّع الطرف الآخر إلى الحصول على أكبر كسب أو عائد مادي وبسرعة، مما يولّد مشاعر العداء والضغينة والتمييز وتأكيد الصور النمطية العنصرية الجائرة. وتعود أسباب هذه العلاقة إلى عدم تماثل المعرفة لدى الطرفين؛ فالمضيف من الأهالي يتمتع بمعرفة دقيقة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، على عكس السائح الذي يصبح جهله بهذه الأوضاع لقمة سائغة للاستغلال، ولكن السائح بسبب هذه العلاقة أيضاً لا يجد مبرّراً في عدم التحايل وإن أمكن عدم دفع ما يترتب عليه من مصاريف أو رسوم، سواء باستخدام وسائل تظهر قانونية لكنها مزوّرة أو غير أخلاقية[34]. ويرى سميث[35] مثلاً أن ذلك يعود إلى أن السياحة تعني العمل لمعظم الأهالي، بينما تعني الرضى والاستمتاع وقضاء وقت ممتع للسياح، وفي نظره أن هذه الفروق تؤدي إلى حالة سوء فهم وصراع مصالح بين الطرفين.

وتنتظم وتقوم العلاقة بين السائح والأهالي، وبدرجات متفاوتة، على أساس نظامين: اجتماعيين وثقافيين مختلفين. أولهما، محليّ غزاه السائح والآخر، نظام السائح الطارىء ذاته. وتقوم ديناميكية العلاقة التطورية بالتحوّل من النظام الأول إلى النظام الأخير، وتتم عملية التحوّل في العادة عبر المتاجرة بالضيافة أو جعلها سلعة. فيتعامل السائح في البداية على أساس العلاقة التقليدية للضيف والمضيف، ولكن ما أن تزداد أعداد السياح، حتى يقلّ الترحاب بهم، وتزداد ضغوطهم وطلباتهم، وتتحوّل العلاقة التقليدية إلى علاقة تجارية بحتة تقوم على الكسب فقط[35].

وأثناء هذا التحوّل غالباً ما تمرّ السياحة بطور مَرَضي أسماه ستون[36] الاتجاه القنصي للسياح، إذ يسعى بعض الأهالي للحصول على أكبر عائد مالي من أي مواجهة مع السائح، بغض النظر عن النتائج المترتّبة على ذلك في المدى الطويل. وتتميّز هذه المرحلة بعداء للسياح وزيادة ملفتة في التمييز ضدّهم، بل وعدم تورّع البعض من ارتكاب بعض الجرائم البسيطة بحقهم؛ فالسائح أصبح بالنسبة للأهالي لقمة سائغة،

(33) V.L. Smith (ed.) **Hosts and Guests**, phaladelphia, Univ. Pa. Press 1977.

(34) L.L. Nicholls: «Tourism and crime», **Ann. Tourism Res.**, 3 (1976), pp. 176-82.

(35) V.L. Smith: «Tourism and Behavior», **Studies in Third World Societies**, No. 5, Williamburg, Va.: Dept. Anthropol., Coll. William & Mary, 1978.

(36) W.A. Sutton: «Travel and understanding: Notes on the social structure of touring», **Int. J. Comp. Sociol** 8 (2), 1967, pp. 218-23.

المفروض فيه أن يحصل على أكبر قدر منها وإلاّ كانت من نصيب غيره، ويُنظر في هذه المرحلة إلى السائح بوصفه بنكاً متحرّكاً، يصرف ما فيه على الملذّات والمتع بدلاً من فعل الخير أو المفيد النافع الضروري. وغالباً ما تتحرّك في هذه المرحلة آثار سيئة وعكسية على السياحة طويلة المدى، مما يدفع بزيادة الجهود من أصحاب المؤسسات السياحية والسلطات المحلية إلى إيجاد نظام سياحي متخصص ينطلق من تصورات مختلفة تسعى لكسب السياحة بوصفها مصدراً مهماً للدخل القومي وبالعملة الصعبة المطلوبة[37].

ويعدّ الاهتمام بالتخصّص السياحي جهداً مهماً للحفاظ على سمعة المنطقة واستمرار المصالح طويلة المدى في استمرار وتدفق السياح. لكن بالرغم من أهمية هذه العملية إلا أنها تحوّل عملية السياحة إلى نشاط اقتصادي احترافي غير محايد، سيكون لصالح المؤسسات وبخاصة المؤسسات عابرة القارات على حساب الأفراد والمؤسسة الصغيرة المحلية، مما سينتج عنه ما يعرف بالاقتصاد الثنائي، كما سنرى لاحقاً[38].

وقد دُرست اتجاهات الأهالي نحو السياح، وبالرغم من ادعاء البعض أن السياحة تزيد من التفاهم الدولي، إلا أنه نظراً لأن السياح ـ وبخاصة القادمين منهم من المجتمعات الصناعية ـ قد سُبقوا عادة بالغزاة والمستعمرين والتجار والإرساليات والمغامرين وعلماء الأنثروبولوجيا مما جعل انطباعات وتصورات الأهالي عن كل واحد من هذه الفئات سيسقط على السياح[39]. ويرى كلٌ من بلسيل وهوي[40] أنه عند قبولهم كضيوف، فإنهم يعاملون في البداية كأفراد ويدخلون معهم في علاقات شخصية، لكن مع تزايد أعدادهم يصبح الأهالي غير قادرين على إقامة علاقات شخصية مع كل زائر بمفرده، ومن ثم يتجهون إلى تصنيفهم عرقياً أو بحسب الجنسية، مجرّدينهم بذلك من خصائص الإنسانية ومميّزاتهم الفردية[41].

ويقترح دوكسي[42] أن اتجاهات الأهالي تجاه السياح تتطور في أربع مراحل هي:

---

(37) Ibid., p. 212.

(38) D.J. Greenwood: Culture by the pound: Anthropological perspective on tourism as cultural commoditization», in **Smith**.

المرجع السابق في تعليق (33)، ص 129 ـ 38.

(39) الأمثلة على ذلك كثيرة، مثل عداء العديد من أبناء بلدان جنوب شرق آسيا ضد البريطانيين، وكذلك الحال في أجزاء من الكاريبي ضد الهولنديين وفي إفريقيا ضد الأوروبيين.

(40) F. Belisle and D. Hoy: «The perceived impact of tourism by residents: A case study in Santa Maria, Colombia, **Ann. Tourism Res.** 7, 1980, p. 83-101.

(41) O.P. Sunyer: «Through native eyes: Tourists and tourism», in a **Catalan maritime community**.

في كتاب Smith، مرجع سابق، ص 149 ـ 55.

(42) G.V. Doxey: «A causation theory of visito resident irritants: Methodology and research inferences, In **the Impact of Tourism**, Proc. 6th Ann., Conf. Travel Res. Assoc., San Diego, Calif., 1979, pp. 195-98.

الخوف فاللامبالاة فالضجر وأخيراً الكراهية. ويُحتمل أن يصاحب المرحلة الأولى اتجاه إيجابي نحو السياح، على أن الخوف لا يشكّل دائماً بداية السياحة وبالذات عندما تفرض من الخارج. أما العداء والكراهية، فإنها تزداد مع زيادة كثافة وأعداد السياح، وبخاصة في المناطق التي كان الأهالي يتمتعون بقضاء عطلهم فيها. فلقد عجّلت صناعة السياحة في ظهور الفروق الاجتماعية الاقتصادية والثقافية بين الأهالي والسياح في التنافس على الموارد المحلية القليلة، مما ولّد عند الأهالي الشعور بأنهم أصبحوا مضطهدين في بلادهم من قبل قوة خارجية كاسحة تتميّز بقدرتها على الدفع.

ومما يضاعف من الجفاء والكراهية، التي يظهرها الأهالي تجاه السياح، أن بعضهم من البلدان التي كانت تستعمرهم، وعانوا منها كل أنواع التمييز وعدم التسامح والاستغلال، مما يدفعهم الآن لمعاملتهم ـ إن أمكن ـ بشكل يضمن أخذهم بثأرهم! على أن المناطق السياحية الناضجة، مثلاً سويسرا، تصبح السياحة فيها أكثر وأكثر عملاً متخصصاً مهنياً بشكل رفيع، ومن ثم يغيب كل عداء، وتصبح العلاقة بين الأهالي والزوّار علاقة مهنية جداً تقوم على العرض والطلب والاحترام المتبادل.

بنية النظام السياحية الدولي: اقتصادياً وسياسياً

تُعتبر السياحة الحديثة نظاماً بيئيّاً واقتصادياً وسياسياً في غاية التعقيد، ويتميّز بأنه ذو طابع دولي. فالسياحة في حالة نضجها تصل إلى درجة عالية من العزلة والتباين عن بقية المجتمع المحيط بها، بل هي «فردوس صناعي» وسط غابة من البؤس والفقر. وغالباً ما تكون المعايير المعتمدة في السياحة الدولية وهي معايير غاية في التطور والرقي، لا يمكن مقارنتها بالمحيط الاقتصادي أو الوسط الاجتماعي الذي تقوم وسطه[43]. ويتميّز نظام السياحة بأن له قوة طاردة تجعله يكتسح ما حوله عند توسعه إلى مناطق جديدة، وسواء كان هذا التوسع تلقائياً أو نتيجة لبعض الجهود المحلية أو بسبب جهود تبذلها السلطات الوطنية أو أصحاب المقاولات الدولية الكبرى.

وكما هو معلوم، يقوم نظام السياحة اجتماعياً واقتصادياً على جهود واحتكار مجموعة، أو بالأصحّ منظّمة من المؤسسات الوطنية والعالمية والوكالات الدولية، بل والتعاون بين الحكومات في شكل شركات طيران وسفريات ومنظّمي رحلات سياحية وفنادق ومنظمات دولية للسفر، وتتعاون هذه المؤسسات جميعها لزيادة حجم السياحة وتنوع أماكنها والحصول على أعداد جديدة من السياح. وتُظهر الدراسات التي أُجريت على المؤسسات الفاعلة على المستوى العالمي سيطرة المدن الكبرى على صناعة السياحة، فكما هو معلوم السياحة اليوم، في معظم أوجه نشاطها، هي صناعة دولية،

(43) J. Dunning and M. McQueen: «Multinational corporations in the international hotel industry», Ann. Tourism Res., 9 (1), 1982, pp. 69-90.

مما يجعلها جزءاً من النظام الاقتصادي العالمي، ومن ثم يجعلها مؤكدة لما يعرف بالتبعية، فالمجتمعات المستقبلية للسياح، وهي غالباً من دول العالم الثالث، تصبح داخل هذا النظام، تابعة للمركز[44].

فيوضح تورناه[45] من خلال نموذج عام، كيف أن التنمية السياحية تمر بمراحل ثلاث هي: مراحل الاكتشاف، فالاستجابة والمبادرة المحلية، وأخيراً قيام المؤسسات المتخصصة بتقديم الخدمات واحتكارها. ويفترض هذا النموذج أن السياحة في منطقة ما تمّ اكتشافها حديثاً تتطوّر ابتداء بصورة آنية وتقوم أساساً على المبادرات المحلية، لكن في مرحلة لاحقة، وعندما يثبت أن المواد والإمكانات المحلية عاجزة عن متابعة النمو السريع تتدخل السلطات السياسية والاقتصادية، وعندها ستسعى «للاستفادة» من المؤسسات والشركات الدولية لتطوير الصناعة السياحية، وعندها تتدخل الأخيرة والتي ستسعى إلى التوسّع في المرافق والخدمات ورفع مستوياتها إلى المستويات العالمية، مما يجعل الأهالي وبشكل سريع يفقدون السيطرة على مقدر السياحة في بلادهم ومن ثم حصصهم النسبية في الفوائد التي تدرّها السياحة تدريجاً. بل إن هذه المؤسسات والشركات الدولية تفرض في العادة معاييرها الدولية المتقدّمة على ما تقدّمه من خدمات بحيث يجعلها تعتمد غالباً على استيراد كافة الخدمات والمرافق، بل وأحياناً حتى الأطعمة التي تقدمها للنزلاء، مما سيجعلها لا تعتمد أو تستعين بالموارد المحلية، أو ما تقدمه. بل وإنها غالباً ما تفرض عليها، ما ترى أن السائح يتطلّع إليه ويرغب فيه، ضاربة عرض الحائط بأعراف وقيم وعادات الأهالي، وغالباً ما تركن إلى وتعتمد على هذه المؤسسات دعم نخبة اقتصادية محلية يزداد ثراؤها على حساب بقية الأهالي[46]. لقد دفعت هذه «الحقائق» مالكلوم كريك في مراجعته الهامة عن السياحة[47] للتأكيد على أن وهم أن السياحة تؤدي إلى التنمية الاقتصادية وهم لا سند له والأدلّة على العكس متواترة وكثيرة. فالبلدان ذات الاقتصاد المتخلّف الذي شوهه الاستعمار لن يؤدّي توسعها في مجال الاقتصاد السياحي إلاّ إلى مزيد من التبعية وزيادة في تشويه اقتصادها؛ فالدراسات التي يوردها كريك توضح أن السياحة أدّت في بعض البلدان إلى زيادة المديونية وزيادة التفاوت الطبقي وعدم حسن التوزيع داخل البلد الواحد، إضافة إلى أن المؤسسات والشركات الدولية، بما تفرضه من قيود ومعايير تجعلها المستفيد الوحيد من عملية السياحة. وإذا كانت فكرة التنمية عن طريق السياحة قد لاقت رواجاً من بعض المنظّرين ودعماً من مؤسسات دولية كالبنك الدولي واليونسكو وغيرها من

(44) J. Boissevain: «Tourism and development in Malta», **Dev. & Cage,** 8, 1977, pp. 528-38.

(45) R. Noronha: «Paradise revisited: tourism in Bali», in **de Kadt, Tourism-Passport to Develpment,** New York: Oxford Univ. Press, 1979.

(46) وذلك على عكس ما يعد به دو كادت في الملاحظ السابقة.

(47) M. Crick: Op. Cit.

مؤسسات دولية، إلاّ أن الواقع اليوم يوضح أن السياحة الدولية وحدها لا يمكن أن يقوم عليها اقتصاد محلي مزدهر للأسباب السابقة. بل إن المعايير السياحية الدولية قد تشكل عبء أوليات كبير على حساب الصرف في قطاعات أهم وأكثر أساسية لصالح المواطنين. ويفرّق بتلر(48) في نموذج له عن مراحل التنمية السياحية بين: التطور فالمشاركة فالتنمية وتضافر الجهود فالركود وأخيراً يقود هذا الركود إلى التدهور أو إلى الانتقال عن طريق التجديد. ويتضح من نموذج بتلر أن التنمية السياحية قد تتدهور لانتقال السياح إلى أماكن جذب جديدة مما يجعل الاستثمارات الكمالية جداً والتي كانت غالباً على حساب ما هو أكثر ضرورية استثمارات قد استنزفت جسد الاقتصاد المحلي دون أن تعمل على إفادته بالشكل المطلوب!.

الآثار الاجتماعية والثقافية للسياحة

تُعتبر مسالة الآثار المترتبة على السياحة من أكثر القضايا حساسية وأهمية ومن ثم اهتمام الدارسين بها. وتركّز غالبية الدراسات على الآثار المترتبة على المجتمعات المضيفة، وغالباً ما تتجاهل آثارها على السياح أنفسهم.

ويفرّق الباحثون بين الآثار الاجتماعية الاقتصادية والآثار الاجتماعية الثقافية التي سببها السياحة. وتغطي الدراسات الاجتماعية الاقتصادية الموضوعات الرئيسة التالية: تبادل العملة الصعبة والدخل والعمالة والأسعار وتوزيع المكاسب والتنمية والعوائد الحكومية(49). وهناك اتفاق عام على أن السياحة تساعد على جذب العملة الصعبة، بل إنها تشكل مصدراً أساسياً لعدد من الأقطار للعملة الصعبة، وهي بالتالي تشكل مصدر دخل مهم لدخل حكومة البلد المضيف، وتقدم فرص عمل للأهالي في خدمة السياح، وهذا واحد من أهم الأسباب التي تجعل العديد من البلدان حريصة على تشجيع النمو السريع للسياحة، بسبب الفوائد الاقتصادية الفعلية أو المامولة.

إلا أن السياحة تساعد وتعضد في الوقت نفسه على انتشار موجات التضخم بسبب الضغط على الموارد الشحيحة أو المحدودة مثل الأطعمة أو الأرض مما سيكون له أثره السلبي على الأهالي ذوي الدخول المتدنية في الغالب(50)؛ كذلك تؤدّي السياحة إلى توغّل وانتشار الأجانب في البلاد وتدخّل مصالح مالية أجنبية وأجنبية متعاونة مع نخب وطنية مما يؤدّي، كما ذكرنا، إلى فقدان الأهالي القدرة على السيطرة على هذه الصناعة

(48) R.W. Butler: «The concept of a tourist area cycle of evolution: Implications for mangement of resources», **Cam. Geogt**, 24, 1980, pp. 5-12.

(49) R. Wahnschaft: «Formal and informal tourism sectors: A case study of Pattaya, Thailand», **Ann. Tourism Res.**, 9 (3), 1982, pp. 429-52.

(50) عبّر لي العديد من السكّان المحليين في أكثر من قطر كيف ان اثمان السلع التموينية غدت عالية، وخصوصاً النوعيات الجيدة بسبب تقديمها للسياح القادرين على الدفع.

وما تنتجه من مكاسب.

إضافة إلى ذلك، فإن السياحة، والتي كانت، كما ذكرنا، في الستينات والسبعينات واحدة من أهم الأفكار المطروحة للتنمية الاقتصادية، تؤدي إلى قيام تخطيط غير عادل، يؤدي إلى تطوير السياحة ومنشآتها الاستهلاكية على حساب الضروريات التي تخدم احتياجات ومتطلبات الأهالي مما ينتج المزيد من التبعية بدلاً من التنمية المنشودة، من إثراء حفنة من النخب على حساب بقية أفراد المجتمع، وغالباً ما سيكون هذا على حساب قطاعات اقتصادية مهمة كالزراعة أو تأخر الصناعة المحلية وهكذا[51].

أما الآثار الاجتماعية الثقافية فعديدة مختلفة، ويمكن إجمالها في الموضوعات التالية: مشاركة الجماعة المحليّة في إطار أوسع، وطبيعة العلاقات الاستثمارية وأسس التنظيم الإجتماعي وإيقاع الحياة الاجتماعية، والهجرة وتقسيم العمل والطبقية وتوزيع القوة والانحراف واختلاف العادات والفنون المحلية[52].

فمع السياحة تفتقد المجتمعات المحلية وحدتها الثقافية، وتصبح أكثر فأكثر خاضعة وتابعة للأنظمة العالمية أو الخارجية عنها، فتصبح أكثر تأثيراً بتغير الموضات أو الانتعاش أو الركود العالمي في الاقتصاد، وهي أمور ليس للمجتمع المحلي أي سيطرة عليها على الإطلاق. أما على مستوى الصلات الشخصية المحلية فإن السياحة تعمل على تفتيت العصبية المحلية، وتزيد من الفردية، وتوضح بعض الدراسات أنها تزيد من خلق التوترات والصراعات داخل المجتمع المحلي وبالذات بين المجموعات الحدّية عرقياً أو بيئياً.

وتعتبر السياحة ذات أثر رئيسي على أسس التنظيم الاجتماعي، وبالذات على المجتمعات التقليدية والبسيطة المحافظة، إذ تتحول بعض مجالات الحياة التي لم تكن تخضع للمعايير الاقتصادية إلى صبغة تجارية تعامل كالسلعة، وتصبح اعتبارات الكسب الاقتصادي هي القيمة المسيطرة ليس فقط في العلاقة بين الأهالي والسياح وإنما بين الأهالي أنفسهم!.

ولاحظ العديد من الدارسين[53] تأثير السياحة على إيقاع الحياة الاجتماعية؛ فالسياحة نشاط موسمي يؤثر بصورة دراماتيكية على طريقة الحياة التقليدية في المجتمعات المحلية الزراعية أو المحافظة، كذلك في تغيير تقسيم الحياة اليومية إلى وقت للعمل ووقت للترفيه والراحة، مما سيكون له تبعاته على الحياة العائلية، بل حياة

(51) صرفت بعض الأقطار على القطاع الفندقي بسخاء على حساب قطاع الزراعة والصحة والتعليم ودعم السلع التموينية لمواطنيها.

(52) J. Foster: «The sociological consequences of tourism», **Int. J. Comp. Social**, 5 (2), 1964, pp. 217-27.

(53) N. Graburn: **Ethnic and Tourist Arts: Cultural Expression from the Fourth World**, Berkeley: Univ. Catif. Press, 1976.

المجتمع على المدى الطويل. والسياحة تبدع فرص عمل جديدة، مما سيجعل الأماكن التي تزدهر فيها مركز جذب للهجرة الداخلية وذلك للإفادة من الفرص المأمولة. وستكون من أهم الفئات التي تجذبها هذه الفرص الشباب (ذكوراً وإناثاً)، مما سيؤدي إلى زيادة معدلات التحضر ومن ثم أعباء الحياة الحضرية ومشاكلها. والسياحة تلعب ـ كما ذكرنا ـ دوراً مهماً في تغيير البناء الطبقي في المجتمعات التقليدية مما سيُنتج تحولات اجتماعية وثقافية قد لا تكون مريحة دائماً، ويؤدي هذا الوضع إلى قيام طبقات اجتماعية جديدة.

ويُحتمل من جراء متطلبات السياحة، أن يُعاد تقييم مواد ومنتجات محلية لاستخدامها بشكل جديد لمصلحة السياحة، فتتحول أراضٍ بور أو غير مستغلة فجاة إلى أراضٍ تقام عليها فنادق ومنتجعات أو ملاعب، فيصبح أهلها من الصفوة المحلية الجديدة، مما سيترتّب عليه تحوّلات اجتماعية وثقافية جديدة، وغالباً ما يصاحب ذلك تغيرات في تقسيم العمل وتوزيع للفوائد غير متساوٍ مولّداً بذلك حراكاً اجتماعياً لا يعتمد على المعايير المحلية المتعارف عليها. وإنما على معايير وموازين خارجية ـ وكذلك يجعل العديد من المنتجات المحلية مجرّد تحف فولكلورية تستبعد عن الاستخدام اليومي وتصبح للزينة والفرجة.

أما التحولات الأخلاقية والثقافية، فإن كريك[54] في مراجعته التي سبقت الإشارة إليها، يوضح أن العديد من رجال الدين المسيحي الآسيويين، على سبيل المثال، أكّدوا على خطورة استمرار السياحة الدولية بشكلها الحالي المدمّر للقيم والآداب العامة، خصوصاً إذا ما ارتبطت بالأمراض الجنسية، والانحطاط الخلقي السائد والمفروض على الأهالي. كذلك فإن السياحة الدولية في إدراجها بعض المهرجانات والشعائر الدينية في برامجها، حوّلتها إلى طقوس لا رمز ولا روح فيها، مما جعل الشباب يعرضون عن ثقافة الأهلين ودينهم ولم يعودوا يتجاوبون مع روحانية ورموز تلك الطقوس الدينية. أما الآثار الثقافية، فإن العديد من الدارسين[55] يؤكدون على أن للسياحة الدولية في صياغتها الحالية آثاراً مدمرة جداً على الأهالي والسياح على حد سواء. فالسائح، من المتوقع، أنه لا يهتم إلاّ بالمتعة الآنيّة، مع افتراض أن هذا الدور هو الدور الأكثر شيوعاً؛ فلقد أصبحت ردود الفعل الأولية تقوم على: إما دفعه إلى متع حسّية غير بريئة على أساس أنه إنما جاء من أجل ذلك، وتسييرها له بشكل فاضح غير لائق، أو بالعدوانية والنفور منه بناء على صور نمطية تجعل الاختلاط بالسائح أو معاملته معاملة حسنة مدعاة لسوء الفهم من طرف السائح وبقية الأهالي!.

(54) Crick: Op. Cit.

(55) R.E. Wood: «Tourism and under development in South East Asia», **J. Contemp Asia**, 8, (4), 1979, pp. 274-87.

كذلك من أهم آثار السياحة الثقافية قدرتها على تفتيت تماسك وتجانس ثقافة المجتمع المحلي، وفرض نوع من التعددية أو التنوع الثقافي، في أكثر صوره ابتذالاً. ولما كان السائح، عادة ما يمثّل بلدان المركز المتقدمة صناعياً واقتصادياً، فإن تقليده و «التحرر» من قيم وضوابط المجتمع المضيف تصبح واسعة الانتشار بين الشباب كثير الاحتكاك والإعجاب بالسياح!.

ختاماً، من عرضنا السابق، من الواضح أن التراث العلمي في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا تراث شديد النقد والريبة من السياحة، خصوصاً في تناقض المقاصد النبيلة مع الواقع الفاسد والمدمر. وإن كنت أتفق مع معظم ما يورده هذا التراث من «حقائق» وما توصّل إليه من «نتائج» إلاّ أنني أرى أن السياحة، وهي صناعة اقتصادية متطوّرة جداً، يمكن أن تكون غير ضارة، بل وقد تكون واحداً من أهم عوامل الازدهار إذا ما قامت على سياسات متوازنة وبصورة مهنية راقية، مما سيسمح للمجتمع المضيف أن يحافظ على أصالته، دون التدخل الأجنبي الخارجي، ودون أن يدخل في مراهنات اقتصادية مشوّهة، مع سيطرة منظّمة على تدفّق وحجم السياح وكيفية سلوكهم أثناء ضيافتهم، قد تجد هذه الضوابط من عوائق السياحة على المدى القصير لكن قد لا تكون كذلك على المدى الطويل[56].

(56) ارجو أن لا تُفهم مقالتي هذه كما لو أنها تنظر إلى السياحة بشكل متشائم أو ترغب في إلحاق كل معالم التخلف على السياحة، وإنما بالعكس الرغبة في دراسة السياحة بعقلانية وعلى أساس حسابات دقيقة تأخذ في اعتبارها التوازن بين الاقتصادي والثقافي والأخلاقي!.